

رويداً - فإن الدهر مازال صرفه ... يدور - وإن الملك ليس بدائم

ويا رمم القتلى بكل تنوفة ... ويا لخب النيران بين العواصم

ويا دارس الأطلال في كل دمنة ... ويا مائل الآثار بين المعالم

ويا موج (بحر الروم) في كل ساحة ... ويا خفقات الريح بين العوالم

ففي حدثي التاريخ عن مدينة ... يشارك فيها الوحش أبناء آدم

الديار المصرية // فزاد الخطيب

### تذكرة ابن العديم

ابن العديم هو عمر بن كمال الدين العقيلي الحلبي رئيس الشام المتوفى سنة ٦٦٦ كان محدثاً فاضلاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً محموداً درس وأفتى وصنف وترسل عن الملوك وكان رأساً في الخط المنسوب لاسيما النسخ والواشي وله التصانيف الرائقة منها تاريخ حلب أدركته المنية قبل إكمال تبينه وله كتاب الدراري في ذكر الدراري صنفه للملك الظاهر غازي وقدمه له يوم ولد ولده الملك العزيز وكتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة وكتاب في الخط وعلومه وآدابه ووصف ضرابه وأقلامه وكتاب رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري وكتاب تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد. قال ياقوت: وكان إذا سافر يركب في محفة تشيله بين بغلين ويجلس فيها ويكتب. وقد رحل إلى العراق ومصر والحجاز وتولى من أجداده خمسة قضاء القضاة في حلب على التوالي ومن شهره.

فوا عجا من ريقه وهو طاهر ... حلال وقد أصحى على محرما

هو الخمر لكن أين للخمر طعمه ... ولذته مع أنني لم أذقيهما

ولابن العديم شعر مستملح ونثر عذب ومن كتبه التي أبقته الأيام كتاب التذكرة  
دخل دار الخديوية بالقاهرة جزء منه في بضعة أجزاء أولها الجزء الخامس وآخرها  
الجزء السادس عشر في ٢٠٥ ورقات صغرى أولها:

جفني بجفك قد جفاد هجوعه ... والقلب واصله عليك ولوعه  
وسقام جسي فيك عز ذهابه ... والنوم عز على الجفون رجوعه  
ومما جاء فيها:

أنشدني منجب الدين ابن الأمان المذكور قال أنشدني القاضي وجيه الدين ميلف ابن  
الصنديد الشيرزي قال أنشدني للأمير شرف الدولة ابن المنقذ نفسه وكانت الزلزلة  
قد خربت شيرز اثنتين وخمسين وخمسمائة وسقطت القلعة على أخيه وأولاده وزوجته  
الحاتون أخت شمس الملوك فسلمت دونهن ونشبت من الردم فجاء نور الدين محمود  
بن زنكي إلى شيرز وتسلمها وطلب من زوجة أخيه أن تعلمه بالحال وتمددها فقالت  
له أن الردم سقط عليها وعليهم ونشبت سالمة دونهن ولا تعلم بشيء وإن كان لهم  
شيء فهو تحت الردم وكان شرف الدولة عابئاً فلما حضر وراى شيرز وما حل بها  
وعاين زوجة أخيه بعد العز في ذلك الدل عمل:

ليس الصباح من المساء بمثل ... فأقول لليل الطويل ألا المجلي  
شلت يد الأيام أن قسيها ... ما أرسلت سهماً فأخطأ مقتلي  
في كل يوم كربة من نكة ... يهمني لها جفني وقلبي يصطلي  
يا تاج دولة هاشم بل يا أبا ... التيجان بل يا قصد كل مؤمل  
لو عاينت عينك قلعة شيرز ... والستر دون نساتها لم يسدل  
لرأيت حصناً هائل المرأى غداً ... متهيلاً مثل النقا التهيل  
لا قنثني فيه السعادة لمسلك ... فكأننا تسري بقاع مهول

ومنها يشير إلى زوجة أخيه المذكورة:

نزلت على رغم الزمان ولوحت ... بمنك قائم سيفها لم يترن  
فتبدلت عن كبرها بتواضع ... وتعرضت من عزها بتدلل  
فما وأنا أخوك مقال جا (؟) محصلاً ... سبلاً وأزعم وهو غير محصل  
ودفت بين ثلاثة ضاجعتهم ... كالليث ضاجعه ثلاثة أشيل

وفال قاضي القضاة كمال الدين ابن العديم في المجلد الثاني:

نقلت من خط أبي عمرو الطرطوسي لأبي القاسم الحسن بن الحسين التميمي الواساني  
يتدح الأمير أبا الفضل سعيد بن شريف بن سيف الدولة بن حمدان ويسأله في رد  
حمامه وداره وكانتا مقبوضتين مقطعتين لبعض الجند:

لو كنت أمدح للجددا ... لشرعت في بحر النداء

وأقمت بالتأميل مولا ... نا الأمير السيدا

أولى الملوك بأن بنا ... ط به الرجاء ويقصدا

وأحق أن يهب الطري ... ف لسانل والمتلدا

داري وحمامي أق ... ل لديك من أن يوجدنا

فهيما العداة كقطرة ... مدت خليجاً مزبدا

فوعده أبو الفضائل بإطلاقهما فكتب إليه ينتجز توقيعاً بذلك:

يا أيها الملك الجليل ... ظني بك الحسن الجميل

ولعبدك المسكين في ... حمامه خطب جليل

ما لي إليه بغير تو ... قيع أرواح به سبيل

فأمن بتوقيع به ... يأمن له انجد الأثيل

فأطلق له ذلك وسلمه إليه فقال يشك رد لما تعلم ذلك:

أيها السيد استمع قول عبدك ... لم يشبه بالزور واليهتان  
 بل هو الحق اشهد الله والناس ... س وآتي عليه بالرهان  
 أتت والله فهي بالغة الإيمان ... يمان أهل ليس والإيمان  
 وحقيق بأن يبلغك الل ... هـ برغم العداء أقصى الأمان  
 يا أمير القلوب قاد هواها ... واشتراها بأوفر الأثمان  
 فهي تعوله وتمحضه النص ... ح بلا ربية ولا أدهان  
 ذاك أن القلوب تملك بالإحسان والخوف مالك الأبدان  
 لا يرى أن يقول لا أبداً ... لفظاً بما أو إشارة بيان  
 وكريم المزاح إن حضر الزا ... د لسط الإكليل والندمان  
 أقرب القوم منه من جاء للحا ... حة غرقان عند وضع الخزان  
 وحفي بفتية ليس منهم ... غير ماض العزيم ثبت الجنان  
 ووفي بعهدده طاهر القل ... ب جدود في نصحه غير وان  
 دهره بين نثره وحسام ... وجواد ذي ميعة رسلان  
 غير صاغ إلى سماع أغان ... مطربات ولا كعاب أغان  
 فهو وانجد مثل طرفي رهان ... أو شقيقين ارضعا بلبان  
 ما تكني أبا الفضل حتى ... فضل الناس بين قاص وودان  
 وتسمى باسم السعادة والأس ... ماء موصولة العرى بالمعاني  
 هو والله مشتري فلك أصبح باليمن دانم الدوران  
 سار في برجه فأطفأ بالسعد نخوس المريح والدبران  
 طرف الله عين عداد وإن ساء عدوا ما قلت عين الزمان  
 وكفانا فيه الملمات ما صوب نجم أو لاح برق يمان

فوحق الأنعام والكهف والطور ... ر و ط ه وسورة الرحمن  
 لو تركنا مختار بين الأمانى وضقنا وهن بالأرسان  
 ما بلغنا في الحدس والظن مع ... شار سرور نراه رأي الأعيان  
 يا كريماً أباًؤه أمراء الع ... رب والعجم من بني ساسان  
 آل حمدان سادة الناس مذكا ... نوا قديماً في سالف الأزمان  
 وأحق الملوك بالفخر من أضح ... ي أميراً على بني حمدان  
 سيد يشتري الثناء ويخشى الل ... هـ في سره وفي الإعلان  
 فلأنت الأحق قد علم الل ... هـ بأن تصطفى لهذا المكان  
 باتفاق من سائر الناس من ح ... بي معد معاً ومن فحطان  
 نحن ما دمت آخذاً بزمام الملك من ريب دهرنا في أمان  
 لا يخاف البريء منا ولا ... يياس جان من رافة وامتنان  
 أحمد الله يا سعيد على أنك كهفي من كل إنس وجان  
 وعلى أنني بجزدك في ظ ... ل من العيش ناضر فينان  
 وقد تحيرت والمهين في شكرك مالي بما بديت يدان  
 أي شيء بجز بك عني ومالي ... غير ودي وغير شكر لساني  
 وهما يقصران عنه ولو كنت كفس في النطق أو سبحان  
 غير أبي قد بعث نفسي ... مولانا وإن لم أساو ما أولاني  
 فخذ الآن عهدتي وارض من عبدك ما يستطيعه إمكاني  
 لأكون امراً تقصيت جهدي في جزاء الإحسان بالإحسان

للسابق أبي اليمن محمد بن خضر المعري :

حلب معهد الصبا والحصابي ... فسقاها الوسمي ثم الوالي

موطني بعد موطني فكأني ... لغرامي بحبها البحري  
 فلديها كل الفنون وفيها ... ما اشتهاه الشرعي والفلسفي  
 غير إني أرى الأطايب شرزاً ... وحليف الإفلاس عنها قصي  
 وقال في عبد الودود النحوي :

كشف رأس النحوي غير عجيب ... هل رأى الناس أياً بعنانه  
 هو صدر إن كان زهداً وعلماً ... قصر الثوب وانكشف إلامه  
 ودعوه فالعذر فيما أتاه ... ليس يخفي وظالم من لاهه  
 لو تخلى من الخال لأمسي ... بيته في خلوه أطلاله رام  
 طالما جاع في الزمان محي ... مثل ما ضاع زاهد علامه  
 وكتب إلى بعض الرؤساء يشكو رجلاً يقال له ابن العقيدة من أهل حلب :  
 العبد يشكو علة في جسمه ... واليك يشكو علة في حاله  
 وابن العقيدة في الإساءة زائد ... لا ينتهي عن لومه وسفاله  
 بك أبيها الكافي الأمير أعوذ من ... وغد أصر على قبح فعاله

الخدام على صورة لا يمكنه منها المثول بالحضرة السامية وشكوى ما استمر عليه من  
 سوء معاملة هذا الوغد المذكور والله لولا الحياء وإنه ممن لا يحفضه الهجاء لكويته  
 بميسم يشقى لناره ويبقى على الأعقاب إثر سناره ولكن طليق عرضه اللثيم وفي ذمة  
 مقداره الذميم والرأي للحضرة في زجره عما هو عليه وأمره بما يعود لمصلحة الخدام  
 علوه إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى إنسان صانع عمل له شيئاً فيسر إليه أجرته واعتذر :  
 خذ ما تيسر يا أبا منصور ... واعتذر فقد أسرفت في التقصير  
 ومع الشاء فما تضيع صنعة ... عندي لرب صناعة وأمين

الدراهم المراهم أطل الله بقاء مولاي.

فأما صناعته فتجلى عن الورق والعين ولا تقابل بالكثير من هذين النوعين ورأيه في قبول ما تبعث به والرجوع في ذلك إلى كرم أخلاقه ومنصبه الموفق لإنشاء الله -  
وقال: كتب في كمال الدين القاسم بن القاسم الواسطي يطلب تبناً.

مازلت تحفر قبراً ... ونحن نطلب تبناً

وللكرام تشاد ان ... على وبالحمد تبناً

وقد رميناها سهماً ... من المديح وصناً

فاستقي الثرى الجعد يا غيث كل جذب وصناً

ففي كمالك داغ ... دعا بنا فأجينا

وأنشدي عز الدين عبد العزيز بن سالم بن محمد الحواري :

لو كنت تعلم كل ما علم الورى ... طراً لكنت صديق كل العالم

لكن جهلت فصرت نحسب أن من ... يهوى خلاف هواك ليس بعالم

فاستحي أن الحق أصبح ظاهراً ... عما تقول وأنت شبه النائم

هذه نموذجات من هذه التذكرة فيها المتع النافع ويا حذا لو صحت عزيزة أحد علماء مصر بنشر الموجود منها لأنها أثر نفيس خصوصاً وهي مكتوبة بخط صاحبها وفيها من الأشعار والأخبار ما يلد ويفيد.

### حب الوطن

خطب ارنست لافيس من مشاهير علماء الاجتماع والتاريخ واحد أعضاء الجمع

العلمي الفرنسي في إحدى المدارس الفرنسية خطبة في حق الوطن قال فيها:

الوطن أرض يترها أناس يخضعون لنظام واحد. ولقد صرفت العناية الكبرى لتأليف

مثل هؤلاء الجماعة وتحديد مثل هذه الأرض. حتى أنك لترى الأقاليم المتناية التي هي

اليوم خاضعة لسلطان واحد تكاد تكون متحدة في ميولها ورغائبها بعد أن كانت من قبل مشتتة. جاء زمن كان فيه إقليم بيكارديا (من أعمال فرنسا) أبعد عن إقليم برتانيا وإقليم برفانس (فرنسا) مما ترى عليه اليوم فرنسا بعيدة عن أميركا والهند. ولطالما عملت الطبيعة ثم السياسة ثم الحديد ثم النار ثم العقل والقلب قروناً عديدة حتى هيأت لنا هذه الأرض التي نسكنها والسماء التي تظلمنا.

عليكم التاريخ كيف عمل ملوكنا لتأليف أجزاء المملكة الفرنسية فضموا أشتات ولاياتها واحدة بعد أخرى فكانت أول صلة ربطت إقليم بيكارديا بإقليم برتانيا وإقليم غاسكونيا بإقليم بروفنسيا وغيرها. إنها خضعت لملك واحد فأصبح آباؤنا بأسرهم فرنسويين لأنهم صاروا كلهم رعايا ملك فرنسا فكان بذلك أول اجتماع وطني وهو اتحاد الجميع في الطاعة لملك واحد. فاهتم الشعب لما يصدر عن الملك من الأعمال وراح أجدادنا يتحدثون بدءاً واحدة في الأعمال الحربية فقدموا لذلك ما لهم ومهم فكان إذا كتب النصر للملك الفرنسي تغبط الأمة بأسرها وتسرع وإذا نكت أعلامه تبتس وتكتسب. وتواصلت العادة في النفوس بأن تضطرب لأنز واحد في ساعة واحدة فنشأ في ذلك في بلادنا شعور وطني.

ثم تجلت مظاهر الاجتماع بما أنتجت العقول من الأعمال فأحدثت الأمة الفرنسية لغتها. فإن كنا اليوم نتكلم بلغة هي من أجمل لغات العالم فذلك لأن أجدادنا قد بذلوا كل نفس ونفيس قروناً عديدة حتى يجعلوها في هذا الجمال والقبول. فعلم الأدب هو بمنزلة الاعتراف العام في أمة تودعه تصوراتها في الوجود وتصوراتها في الإنسان. وكانت الآداب الفرنسية ترجماناً عبر فكر فرنسا وأخلاقها الخاصة بها وجعل من الجماعة التي ضمت السياسة شملهم جماعة ربطت بينهم الأخلاق.

مضى زمن طويل كانت فيه فرنسا متغمة مع مليكها في الأفكار وذلك لاعتقاد الفرنسيين أن الملك كان نائب الله تعالى على الأرض يجب حبه وخدمته كما يجب الموالي ويطاع.

أيها الجمهوريون الصغار إنه يصعب عليكم قليلاً أن تدركوا هذا الشعور. ولكل زمن أخلاقه والمتأخر قد لا يعي حال المتقدم. ومن الضلال أن لا يعترف أن هذه الأخلاق كانت فيما سلف مستحكمة شائعة كما أن من الضلال أن يحاول بعضهم إحياءها بعد أن ماتت واضمحلت.

جاء يوم على فرنسا استشاطت فيه غضباً من مليكها لأنه كان يجب الخصام فتصلب في رأيه واشتد في عناده وفي معاملتها ولكن صبر أجدادنا كان غريباً في شكله طويل النفس من وراء العاية. فكانت الأمة تقاسي ضرورياً من سوء الاستعمال من عدم التساوي وقلة العدل والظلم المطبق. ولم تلبث أن أقامت الحججة ولكن كلمتها ذهبت كصرخة في واد ثم رفعت صوتها بالشكوى أعلى من ذي قبل وأخذت تتناغى بالحرية والعدل والإنسانية فكان من ذلك الثورة فسقط مع الملك طبقات الأشراف وزالت امتيازاتهم وكان لهم من قبل حقوق خاصة بين ظهري الأمة فاشترك جميع الفرنسيين على السواء في الوطن الذي اتحدت كلمته وثناسكت أجزاءه وطفقت فرنسا تتحاب مباشرة وأحبت فوق حبه لنفسها ما تناغت به من العدل والحرية والإنسانية ولذلك حق لها أن يحب أبناءها أنفسهم كما أحبوا بلادهم حباً مازج اللحم والدم. فوطنيتنا الثورية كانت من أجمل العواطف التي عرفها التاريخ.

أيها الأولاد: ليس وطننا أرضاً فقط بل هو عمل إنساني بدى به منذ قرون ونحن نكمله وأنتم تتناوبون العمل بعدنا. إن ما قام به أجدادنا منذ الأصل وذكرى أعمالهم وأفكارهم وحر كات عقولهم ولغتنا وفكرنا وكيفية فهمنا معنى الحياة مع ما خصت به

أرضنا من الخصب والأمرأع وما تجود به علينا سماؤنا من الحسن والإحسان وما عرفت به أصقاعنا من المناظر البهجة وبلاذنا الشمالية من الضباب المتكاثف والحنوية من الصحو المتع وبحارنا الخضراء وبحرنا الأزرق - كلها إرثنا العزيز هي وطننا ابنة الطبيعة وابنة الفكر.

ولكن وطنكم ليس وحيداً بين الأوطان في هذا العالم. هناك أوطان كثيرة تحيط بكم تألفت على غير الصورة التي تألف بها وطنكم كإيطاليا التي كان نشوؤها بطيئاً وكانكثراً التي كان نشوؤها سريعاً. هذه الأوطان قنت قوانينها وأنشأت لغاتها وآدابها وكل منها قد أبانت عن أفكارها وعواطفها في الطبيعة والإنسانية كما ابنا نحن. ولكل منها أفكارها التي تخالف أفكارنا ونوعها الذي لا ينطبق مع نوعنا وكل من تلك الأوطان يحبه أبناؤه كما تحب فرنسا أبناءها.

ماذا يجب أن تكون عليه عواطف تلك الأوطان وسلوكها بعضها مع بعض؟ هذه مسألة هي الآن مما يشغل الأذهان ويهيجها وتقسم في تصورها الأفكار. فقد كان الشعور الذي تشعر به كل منها مدة قرون هو البغض والسلوك الذي تسلكه هو الالتجاء إلى الحرب. والظاهر أنه لم يكن يتأتى للمرء أن يحب وطنه بدون أن يكره وطن غيره.

وظاهر أن الحرب لم يكن يتيسر اتقاؤها في زمان كانت فيه التخوم غير مستقيمة على حال واحدة بين الممالك لأن هذه لم تكن بعد تألفت وعرفت لها كياناً. ولطالما كانت الحرب حادثاً يدعو إلى ثناء الوطن وعملاً يؤدي إلى تحديد تخومها. وهكذا ربيت فينا غريزة الشدة المغروسة فكانت من موجبات بقاء تلك الممالك وذلك لأن الإنسانية ليست طبيعية في الناس وأصبحت الحرب من وظائف الحكومة فيولد الملوك زعماء

حرب والناس ضابطهم ومن كان أدنى طبقة منهم يختارون الدخول في الحرب ليرزقوا منها ويحترفوا بها.

ولطالما كانت الجيوش تقف على قدم الدفاح أبداً وتشب الحرب لاستخدام تلك الجيوش وقهرينها. وتتجلى أعوام السلام كأنها أعوام فارغة على أن تلك الأعوام الخالية كانت قليلة. ومن جملة الدواعي التي تدعو المحاربين إلى إهراق الدماء قديماً كنت ترى المصلحة السياسية والكبر والتشهي والعادة هي الفاعل الأكبر فيها. وكان ذلك من الأدوار الهائلة في تاريخ الإنسانية ونحن نعدده اليوم من آثار البربرية وعلائم التوحش.

وخطب المشار إليه في إحدى المدارس وقال:

إذا سئتم لماذا يدرس لكم أساتذتكم النحو والحساب تهيون للحال: ليعلمونا التكلم والحساب وهما أمران ظاهرة ضرورتكما. وإذا سئتم لماذا يعلموكم تقويم البلدان تبادرون بالجوب في الحال فتقولون حتى نعرف فرنسا بلادنا ونتصور الأرض التي هي بلاد البشر. ولكن ربما ارتبكتكم إذا سئتم فائدة دراسة التاريخ.

ابن الربيعين في السنة التي أنتم فيها يبدو كأنه شيخ هرم منذ مائة سنة أو مائتين أو ثلاثمائة أو أكثر. ولا شك أنكم تكرونه ولا علاقة لكم بجم وإذا كانوا هم آمين مطبئين في موقع فعليهم أن يتركوا صغار الأحياء آمين بدلاً من أن يملؤوا دروس آسمانهم وقائمة آسمانهم بحر كاتم وسكناتم وبأرقام تواريخهم وأزمانهم.

ولكنكم أيها الأبناء محدوعون باعتقادكم بأن المضي بعيد. هو قريب منا ومحاور لنا وهاءنذ آيينه لكم في بضع كلمات: ولد لويس الرابع عشر سنة ٦٣٨ أي منذ ٢٦٠ سنة وأنا الذي لم أبلغ سن الهرم بعد عرفت في نوفيون رجلاً أدرك المعاصرين للويس الرابع عشر.

ويدعى هذا الرجل كزول وكثيرون ممن جلسوا الآن على هذه المقاعد يذكرون ألوما إليه فقد مات سنة ١٨٥٦ في التسعين من عمره كما تشاهدون ذلك مزبوراً على شاهد قبره المصنوعة من الرخام الأبيض. وكانت سني إذ ذاك أربع عشرة سنة و كنت أراه كل يوم إلا قليلاً وكان خال خالي الكبير شهد أموراً هائلة مدهشة فرأى لويس السادس عشر يرفع على المشنقة دستور فرنسا القديم يمزق كل ممزق وفرنسا مولعة بحياة خيالية جديدة. فأخذ يوحى بروح القرن الثامن عشر الذي تعلمت مذ ذاك أن أحبه في أوهامه وخیالاته لأنه كان قرناً في الشقاء والبربرية وتلاذد قرن من الهناء والإنسانية.

فالمسيو كزول ولد إذاً سنة في سنة ١٧٦٦ وبلغ سنة ١٧٧٦ سن الرشد. وفي ذلك الزمن لقي ولا شك بعض أناس من أبناء الثمانين في نوفيون. وعليه فالرجل الذي كان في سن الثمانين سنة ١٧٧٦ قد ولد سنة ١٦٩٦ وكان في سنة البلوغ عندما قضى لويس الرابع عشر نفيه سنة ١٧١٥. وبهذا فأنتم ترون أن هذا الملك الذي يتراءى لكم أنه بعيد العهد جداً قد مستمود بأيديكم إلا قليلاً.

إن المائة والتسعة والثمانين عاماً التي مرت بين موته وبينكم هذه مدة قصيرة من الزمن ينبغي لها ثلاثة رجال وأنا الذي أحاطبكم وخالي وذاك الرجل الثمانين إذا مسك أحد بيد صاحبه نصل إلى هذا العهد وعلى هذا فليس من حاجة إلى سلسلة طويلة من الرجال لبلوغ الزمن الذي جاء فيه المسيح إلى العالم بل يكفي ثلاثون رجلاً.

لعد بضع سنين ترون يا أولادي متى انقضت ألوف من القرون أن الإنسانية تكلم عن الأزمان القديمة. أما الآن فإننا لا نستطيع أن نقول عن رجل مات منذ أمد بعيد جداً فلا حق لكم إذاً أن تحيدوا عن الماضي كما تحيدون عن أمر بعيد جداً وإذا كان

قريباً منا كثيراً لا يجب أن يتطلع أحدكم لتلا يحمل على النظر فيه قليلاً. إن هذا التطلع إذاً ينفعكم وبه تطيلون حياتكم أن تضيفوا أزمته إلى زمانكم كأنكم عشم فيها. نحن قلنا نعلم في حياتنا القصيرة ولذلك نعلم بخلود روحنا. أما التاريخ فيه ضروب من الخلود وراء حجب الماضي ويظهر لي أي بصرف حياتي في دراسته قد بلغت الآن من العمر على الأقل خمسة أو ستة آلاف سنة. وأنا أتزده في فضاء واسع طافح بالأنوار والظلمات والحركات وأتفس برتين واسعتين.

بيد أن معرفة التاريخ شيئاً غير هذا وأحسن منه في الأثر فالتاريخ هو الفراق العظيم بين الإنسان والحيوان. فالكلب يجهل ما بذل من العناية الطويلة. وما اثر فيه نوع التربية حتى صار كلب صيد أو كلب راع. فهو لا يتمثل أمامه تاريخ جنسه من الكلب الأول جده الأعلى إلى أيامنا هذه. والرجل الذي لا يصعد إلى طبقة أجداده وهم في مغاورهم الأولية ليبراهم حيث كانوا يأتون بالصيد ويمتصون نخاع العظام المكسرة بقدم من الحجر هو كلب وزيادة. هو لا يتبع آثاره الإنسانية إلى الدرجة التي بلغناها من المقام الإنساني. والإحساس الظاهر من تكريم الإنسانية لا يقتبس من غير التاريخ.

معرفة التاريخ توضح سبل محبة الوطن. والوطن مكان الإنسانية الذي ولدنا فيه ويتنازع عن سائر الأوطان بالطبيعة بل بالتاريخ أي بمجموع أعمال وأفكار متتابعة تألف منها ما قدر لنا من سعادة وشقاء. فعليكم ألا تجهلوا كيف أصبحت فرنسا من أعظم الأمم - ولا يكفي لأن يكون المرء فرنسياً أن يولد في فرنس كما هو شأن أشجار الحور والصفصاف عندنا بل إن التاريخ هو الذي يطلعنا على ما قام به أسلافنا ويعلمنا ما يقتضي علينا القيام به.

فمن السهل أن يميز العمل الذي تم في خلال القرون الأخيرة. إن هذا المعاصر للويس الرابع عشر الذي ذكرته لكم منذ حين كان رعية لملك كان يعتقد نفسه - بل وكان بالفعل - سيد رعاياه ومالك أرواحهم وأشباحهم فأبادهم بحربه وثما أنفق على فصوره وأعياده وأفراحه وتركهم يعذبون في ظل إدارة مُحقّقة كره العقول على الإغضاء من أفكارها واضطهد الوجدانات وحبس وشرّد ملاً سجون بالرجال والمطابق المؤبدة على أنه لم يكن رديناً كما لم يكن غيباً لأنه كان على جانب من الذكاء. ولم يكن ساقطاً لأنه كان محتشماً في سره وعلى شيء من العدل. ولكن الزمن إذ ذاك كان يبيح تلك الأخلاق. وكان كل ما باته الملك يعتقد - ومعظم الشعب يوافق على اعتقاده - بأن له الحق أن يعمل ما يريد بحيث أنه لا يجوز إلا إذا قليت الأيام له ظهر الخن ولا يتأثر وجدانه بل إنه يأسف قليلاً بيد عليه في حفلة وهو على سرير الملك يكلم وارثه الخزون الذي دعي - الخامس عشر.

نعم كانت تلك الأعصر عصور عدم المساواة الاجتماعية المعتدلة بدون نقض ولا إبرام. فكان يوصف الفلاحون من حرج في مملكة فرنسا - التي هي ضرب من جدول الأيام الوطني - بأنهم (وإن كانوا أكثر عدد من غيرهم فليسوا مما يجب الاحتفال به بل لنا أن نقول فقط بأن منهم تحبى الضرائب وأنهم يزرعون الأرض ليغذوا المدن) وغليك أيضاً كيف كانوا يعرفون الأعمال الصناعية الميكانيكية بأنما سافلة ساقطة. وكان الفقراء وخدمهم يزرعون تحت أعباء الحكومة بأسرها وهي نطلب من الناس ما لا يستطيعون أن يقوموا ببعضه وأرباب الطبقات المختلفة من الأعيان سامت الملوك برفاهيتها وهي تستد إليها ويستندون عليها وعاقبة ذلك سحق الفقير.

لكم أن تقيسوا ما قمنا به من الأعمال وما حدث من الفروق بين هذا العصر والعصر السالف وما أظن أحداً في صحة من عقله يزعم بأن عصرنا عصر سيئات. نعم إن الإصلاح لم يتم إذ لا تزال نرى الشقاء الطبيعي والأدبي والظلم مستحكماً. إنكم على صغر سنكم تعرفون تلك الولايات وكثير منكم يراها قريبة منه. فمن بيوت ضيقة رديئة تحوي عوامل الفناء والأسر الوحيدة العديدة التي بقيت في فرنسا تصفر ألوانها في الأكواخ الساكنة فيها وينهكها السكر الذي ربما نشأ من الشقاء وربما أزاده وأدامه وبداء الكلام والحركات السفهية. وأنكى من ذلك مشاهد أولئك المختصمين الذين لا يقتأون يقلقون ويخافون الفاقة وهم على طيب قلوبهم يحبون منقطة آمالهم. وبين السواد الأعظم وخيار الناس من الفرق العظيم الناتج من اختلاف التربية ما هو معروف موصوف. فالجهل في السواد الأعظم يكاد يكون عاماً يتناول صفات الناس وصفات الوطن.

إن ما يجب أن يعمل أيها الأولاد هو تتابع العمل فيما بدأنا به لنححر المجتمع الفرنسي ما أمكن من ضروب الشقاء والمظالم الإنسانية التي لم تستأصل شأفتها. هذا العمل شاق ولا يخلو من مخاطر وذلك لأننا نحاول للمرة الأولى أن نرفع ما سقط ونقوم ما انحى. وظاهر بأن الناس كلهم كيفما دارت الحال لا يقدرّون على الاضطلاع بأعباء الرعامة وأنه يجب شيء من النظام أبداً وشيء من الترتيب وبديهي بأن بعضهم يتساءلون عنم يقوم على هذا النظام وهذا الترتيب.

لا تعجب أن ترى كثيراً من الناس وفيهم أهل الحشمة والصالح يضطربون ويقلقون وينكرون علينا ما نعد الأمة له ونحلم به من تحسين مستقبلنا. هذه الفئة من الناس هي التي تريد منا أن نرجع أفكار أجدادنا وأخلاقهم ولكني لا أرى بأي حق يقفون في النقطة الفلانية بدل النقطة الفلانية من الطريق المؤدية إلى الكهوف؟ التاريخ بأجمعه

طافح بأخبار الرجوع عن التقاليد وبعبارة ثانية ليست التقاليد إلا انتقالاً من الماضي للحاضر يأخذ منها الناس ما يريدون وما يستطيعون ويبدلون ما شاؤوا أو يخدمون أو فيقون ما أرادوا. وما تقليد يقف في زمن معين إلا أنه أشبه بحدود لا تتعدى.

نعم أنا مدرك ما هناك من مخاوف وأسمع أصوات الأهواء وأشعر بآهات الأحقاد. تذكر الصحف وقائع يومية مخزنة وهناك الأحلام اللطيفة تعدنا بأمور جميلة. ولكن الإنسانية لم يهدأ لها بال قط. وما قط عاشت بدون شهوات وأحقاد وبدون أحلام ومطامع. أما أنا فإني معجب بما مر علي من أيام البؤس والسخط عجيبي من الكون الذي يتم فيه هذا العمل العظيم في العالم.

ولو ذكرت لكم ما حدث هناك في تلك المقاطعة وحدها لطلأ بي المطال ولطالما أصابها ما أصاب باريز نفسها. اذكروا فيها أيام ١٨٤٨ والفتن اليومية التي حدثت على عهد لويز فيلي وأيام الثورة والتعرد على أيام الحكم القديم عهد لويس الرابع عشر وحرركات القرون الوسطى الهائلة أما اليوم فليس فيها شيء من هذا يباكر الناس مضاجعهم فينامون ملء جفونهم آمنين مطمئنين.

أنا لا أتنبأ فلا أقول بأن الدهر لنا بالمرصاد على أنني لا أعتقد بالقلبات الدائمة المخزنة فقد حدث نجاح عظيم في العقل العام. إن حتى الكتابة والحطابة وحتى الانتخاب قد أتت على حتى الثورة. أيها الأصدقاء إنكم لن تسروا أبداً كل قسوة يعد جنابة في البلاد المتبعة بروح الجمهورية.

يعلونكم في المدرسة روح التكافل والتضامن وقاعدته أعن نفسك بنفسك وشعاره أعيوا بعضكم بعضاً وهذه القاعدة هي أساس الإخاء العلمي ثم تجيء بعد أعمال اغنين الشريفة أي إرادة الأمة الفرنسية لتحفظ الحياة من الأمراض التي قددها والطفولية من العمال وسوء التربية والعمل من الحوادث والشجوخة من الشقاء

وتعطي الضعيف واسطة للمناقشة مع القوي وتقسم العمال العامة والتكاليف الأميرية العسكرية على نصاب العدل. وما النظام الجمهوري إلا باحث عن العدل. ألا فلنكبر دائرة الرجاء والآمال بحسن المآل وما الخير إلا ثمرة جهادنا العظيم وسرعته أكثر مما نتصور. واذكروا أن الطريق قصيرة بين معاصر لويس الرابع عشر وبيننا فالتاريخ ما خلا الفضائل التي قلتها لكم يحوي أجمل الفضائل ألا وهو تقوية الأمل اهـ.

ها ما قاله علامة الفرنسيين لطلبة بلاده ترجمناه لتدبره هذه الأمة العربية لأن الأمم متشابهة في تواريخها وأحوالها وليت كبار رجالنا يتتزلون تنازل كبار رجال الغرب إلى محاطة الناشئة بمثل هذا اللسان العذب والأفكار السديدة فلا خير إلا في التعليم ولا تعليم إلا للشبان رجال المستقبل.

### الجغرافي الإدريسي وصاحب صقلية

من مبحث لأحمد باشا زكي

لما آلت إلى الملك رجار النورمندي مقاليد الأحكام في جزيرة صقلية رأى ما عليه المسلمون من الحضارة والعرفان ومكارم الأخلاق فجعل بطانته منهم وتقرب إليهم رغبة في رفع منا ملكه على ما جرت سنة الإسلام وقد تولع بعلم الجغرافيا وببحث في ممالكه عن أساطينه في تلك الأيام. فأرشد المسلمين إلى شريف من سلالة الأدارسة الذين قتلوا مراكش وانتهى إليهم الحكم في مالقة راحوزاها بحبوب الأندلس ثم دالت دولتهم وبقي نفر منهم كانوا ملوك العلماء وإن كانوا أضاعوا التاج والصولجان وفقدوا الحكومة والسلطان.

ذلك هو الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد عبد الله بن إدريس المعروف باسم الشريف الإدريسي.